الأزهر الشريف

منارة العلم والعرفان فى العالم الاسلامى

للدكتور حسين الهمدانى

حفلت البلاد الاسلامية منذ انبثق فجر الاسلام بدور العلم ومعاهد العرفان فى وقت كانت ظلمات الجهل تجثم فيه فوق ربوع العالم العربى . ومع أن هذه الدور كانت تتسم بطابع خاص هو الطابع الاسلامي فانها كانت تتوسم فى نظامها واتجاهاتها الحرص على توفير أسباب الطمأنينة فى نفوس طلاب العلم وتوثيق الصلة بينهم وبين أساتذتهم واشـــاعة تلك الروح الجامعية التى يجب توافرها فى معاهد العلم العليا مثل ما يشاهده المرء الآن فى أعرق الجامعات العربية .

ويلوح أنه لم يكن ثمة مناص من أن تغدو المساجد والجوامع مقرا لنشر المعرفة كما كانت وما زالت مصدراً لبث الهداية والرشد فى نفوس الناس فى الوقت ذاته ، ولم يكن هناك تعارض فى اضطلاعها بالمهمتين ؛ فان الدين الاسلامى الذى يأمر بالتسامح والمساواة ويحث على طلب المعرفة ولو اقتضى الأمر الاغتراب فى مشارق الأرض ومغاربها ما كان ليجد خيرا من المساجد يجوها القدسى لغرس العلم والمعرفة فى نفوس المسلمين ، بل إن اختيار المساجد لهذا الغرض يحمل فى طياته الاقرار بقداسة العلم ووجوب تطهيره من حمأة الأغراض الدنيوية والبعد به عن كل جو ينحرف به عن قدسيته .

وقد ظهر فى الاسلام معاهد علمية عظيمة القدر رفيعة الاسم . وكان الحكام يتنافسون فى انشائها ، فانشىء الأزهر فى عام ٣٦١هـ (٩٧١ م) وانشئت الكلية النظامية فى عام ٤٥٩ هـ (١٠٦٦ م) وانشئت الصالحية فى القدس عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م). وكان الغرض من انشاء هذه المعاهد هى وغيرها بادىء الأمر ـ وباستثناء المستنصرية ـ هو تدريس المذاهب الدينية والدعوة لها ، فانشىء الأزهر لتدعيم المذهب الشيعى فى مصر بعد فتحها على يد الفاطميين .

وانشئت النظامية هى والصلاحية لدعم المذهب الشافعى بينما انشئت المستنصرية لتدريس المذاهب الأربعة وكان بها كلية لتدريس الطب وأخرى لتدريس الرياضيات واللغات. وقد اختفت هذه المعاهد العظيمة واندثرت وعفا عليها الدهر فيما عدا الأزهر الذى ظل راسخا كالطود بالرغم مما مر به من أحداث بل واضطهاد فى بعض العصور . ولعمرى أن المرء ليتساءل ماذا كان يصيب اللغة العربية وآدابها وما يتصل بهما من علوم ومعرفة لو أن الأزهر أصابه ما أصاب غيره من معاهد ولم يصمد للحوادث طيلة هذه الأجيال ؟ لقد كان هذا الأزهر وما يزال ـ وأرجو أن يظل على ذلك أبد الدهر ـ دعاية العلوم والمعارف فى العالم الاسلامى . وقد أراد الله بالأمم الاسلامية خيرا حين كلأ هذا الجامع بعنايته ورعايته وصانه من غوائل الدهر ومن الانهيار .

ولم يكن الأزهر بناء أو جدرانا لا حياة فيها . بل كان على الدوام فكرة نابضة وروحا متسامية وحياة فكرية ومبادىء حية . بدأ جامعا فانقلب جامعة لها خصائصها وتقاليدها وسمتها وطابعها ؛ وقد ظلت هذه التقاليد والخصائص والطابع والسمة تلازمه على مر العصور . وكان من خير هذه التقاليد أن الطالب يظل يتلقى العلم حتى إذا آنس فى نفسه القدرة على التصدر للعلم أذاع ذلك بين زملائه وشيوخه فتعقد فى ديوان الأزهر حلقة من العلماء النابهين يجلس الطالب فى صدرها ويناقش نقاشا حادا فى المادة التى تدرسها وفى جميع المواد المتصلة بها ، فاذا أثبت الطالب كفاءة ممتازة منح حق التدريس . وهذا التقليد يذكرنا بما هو متبع فى الجامعات العريقة وفى مناقشة رسالات الدكتوراه فيها فى عصرنا الحديث .

وإذا كان الأزهر قد صمد نيفا وألف عام للاحداث وظل راسخا فى أداء رسالته فى دعم أركان الدين الاسلامى ونشر العلوم الاسلامية ، واستطاع أن يحتفظ بمكانته المرموقة كدعامة قوية للاسلام ومنارة لنشر العلم والعرفان ، فان مثله يجب أن يحتذى فى كافة الأمصار الاسلامية فليس فى وسع سكان الباكستان أو غيرها من البلاد الاسلامية أن يغدوا بقضهم وقضيضهم ليتزودوا من منهل الأزهر الذى لا ينضب وينهلوا من مورده العذب ، على أن الباكستان وغيرها من البلاد الاسلامية لا تستطيع أن تترسم

الروح الأزهرية الفذة أن ننوه ببعض ما يجول في نفوس بعض العلماء من مخاوف بشأن اضمحلال هذه الروح بسبب تلك النظم الحديثة التي أدخلت في الأزهر مثل نظام الامتحانات وتحديد المقررات وكثرة المواد الدراسية التي لا تتصل بالدراسات الإسلامية — حتى أن البعض يعتقد أن مستوى التحصيل في الأزهر قد انخفض انخفاضا ملموسا بسبب انصراف الطلبة إلى احراز الأجازات التي تعتبر سلاحا للتوظف دون الرغبة في التزود بالعلم لذاته والتعمق في المعرفة. وقد كان النظام الذي سلكه الأزهر خلال القرون الماضية نظاماً جامعياً بحتا وكانت الروح العلمية تسيطر على جوه، فكانت صلة الطالب بمدرسته صلة وثيقة دعامتها العلم والرغبة في اعتراف مناهله. وحسبك أن تعلم أن الجامعات الغربية تتهيأ الآن هذا التهيؤ لتأدية رسالتها. ولكن ما لبث النظام « الدرسي » الجديد الذي ادخل على الأزهر ان اضعف من هذه الرابطة العلمية بين الطالب واستاذه. ثم أن هذا النظام يعمل على شحن ذهن الطالب بعلوم لا طائل تحتها ولا يدع له وقتاً ولا ميلا للتعمق في نوع معين من المعرفة الإسلامية تعمقاً من شأنه أن يخلق لنا علماء من طراز الشيخ محمد عبده والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ المراغي واضرابهم من جهابذة العلماء الذين يفخر العالم الإسلامي بهم. والحق أن النواة لأمثال هؤلاء العلماء موجودة فإن الطلبة الأزهريين ما زالوا يتسمون بالروح العلمية العميقة. وقد علمت من أحد القائمين على إدارة المعهد البريطاني في القاهرة أنه وجد في الطلبة الأزهريين الذين يتلقون اللغة الإنجليزية في المعهد المذكور استعداداً وادراكا وتعمقاً وغيرة واقبالا على العلم بما هو جدير بطلبة هذه الجامعة العريقة. ونعتقد أن خير ما يمكن أن يفعله الأزهر هو أن يعمل جاهداً للعودة لذلك الجو العلمي البحت الذي عرف به وأن يقضي على نظام الامتحانات أو يعد له بحيث ينصرف الطلاب للعلم وحده دون النظر للاجازات العلمية كهدف يتعين عليهم تحقيقه للحصول على الوظائف.

ويودنا لو عنى رجال الأزهر الأعلام الألمعيون بأمر جدير بعنايتهم وهو تعليم الفتيات، فالشاهد أن الأسر الاسلامية كثيراً ما تدخل فتياتها في المعاهد الأجنبية التبشيرية، واننا نجد مبرراً لحرمان الفتيات المسلمات من الثقافة الدينية الاسلامية ولا من خطاه ما لم يمد يده لمعونتها. والواقع أن رسالة الأزهر لا تقتصر ولا يجب أن تقتصر على مصر وحدها بل رسالته أعم وأشمل. ومن حق البلاد الاسلامية أن تطالبه بأن يمد رسالته عبر البحار لا إلى البلاد الاسلامية فحسب بل وللبلاد غير الاسلامية أيضاً. ومن حسن الطالع أن لا يكون هذا هو رأينا وحدنا بل هو رأى الحكومة المصرية نفسها بدليل ما وافق عليه مجلس الوزراء في إحدى جلساته الأخيرة من فتح الاعتمادات لانشاء معهدين اسلاميين في مدريد وطنجة.

وفي وسع الأزهر أن يساهم مساهمة أدبية ومادية في انشاء معاهد العلوم الاسلامية والدينية في البلاد الاسلامية فيبعث بعلمائه إلى هذه الأمصار التي ستلقاهم بصدر رحب وتحلهم منها مكانة الصدر والاعزاز يبثون فيها تلك الروح الفقهية والعلمية العميقة التي انفرد الأزهر بها منذ حوالي عشرة قرون ويضعون برامج الدراسة في هذه المعاهد وفق النهج الذي مارسه الأزهر منذ انشائه ويعملون على نشر اللغة العربية ودعمها في البلاد الاسلامية غير العربية. ولسعادة علوبة باشا مشروع في هذا الشأن يستطيع علماء الأزهر دراسته وتنفيذه كله أو بعضه.

أما بالنسبة للبلاد غير الاسلامية فان واجب الأزهر يقتضيه — بوصفه دعامة العلوم الاسلامية ومنارة الدين والهدى — أن ينشىء المعاهد الاسلامية في عواصمها ومدنها الكبرى وأن يزودها ببعض زملائه الذين يتقنون اللغات حتى يكون في مقدورهم نشر العلوم الإسلامية في هذه البلاد. وإذا كانت بعض الجمعيات الإسلامية قد احرزت توفيقا في هذا المضمار فأحرى بالأزهر وهو المؤسسة التليدة العريقة أن يصيب نجاحاً عظيماً بما يتوافر لديه من اعتبارات وعوامل تكفل له التوفيق والنجاح في القيام برسالته. ويستطيع الأزهر مثلا أن ينشىء معاهد في لندن وبرلين وباريس وروما وواشنطون وغيرها من المدن الكبرى على غرار ما نراه من المعاهد الأجنبية التي تنشئها الدول الغربية بين ظهرانينا. ونعتقد أن مثل هذا العمل يستدعي انشاء معهد خاص للغات الأجنبية في الأزهر نفسه يدرس فيه العلماء والطلاب تلك اللغات بتوسيع وتعمق في وسط ازهري يكفل لهم تغلغل الروح الأزهرية العالية في نفوسهم. ونود ونحن بصدد الكلام على تلك